وما زالا يتكاشفان ويتكاشفان حتى علما أنهما مكشوفان لا يتواريان في جنةٍ لا ينبت فيها ورق التين، فكان هذا التكاشف سببًا ثانيًا من أسباب هيام همام، وقلما ينحصر الهيام في سببين اثنين.

نعم، فقد كان لهيامه بها أسباب مختلفات، بعضها محدود واضح المعالم وبعضها مزيج من شتى أسباب لا تتضح لها حدود.

فمن تلك الأسباب الواضحة أنه كان يحس إحساسًا شديدًا أن توديع هذه العاطفة قد يرادف في معناه توديع الحياة.

لأنه تعلق بها وهو في العِقْد الرابع من عمره، فإذا انقطع ما بينه وبينها فمَن بفتاةٍ تخلفها في ذكائها ونضارتها وموافقتها؟ وإذا وجد الفتاة فمَن له بالقلب الذي يلبي دواعي الصبا وينزع منازع الفتوة ويتقد ويخبو على حسب المشيئة، ويغامر اليوم في عاطفةٍ مرجوَّةٍ وقد كان بالأمس في عاطفةٍ يائسةٍ مضيعةٍ؟

إن خَبَتْ هذه العاطفة فهي جذوة الغرام الأخيرة، عليه أن يذكيها ويرعاها كما كان الأقدمون يرعون الشعلة المقدسة مخافة أن تنطفي فلا يستعيدوها، قبل أن يحذقوا صناعة الزناد والثقاب.

ومن أسباب هيامه بها ألفة متغلغلة في أنحاء النفس والجسد كألفة المدمن للعقار المخدر، مَن شاء أن يسميها حُبًّا فهو صادق، ومَن شاء أن يسميها بغضًا فهو صادق، ولمن شاء أن يزعم أن المدمن يتعاطى عقاره وهو راغب فيه، ولمن شاء أن يزعم أنه يتعاطاه وهو ساخط عليه فقصارى القول أنه يتعاطاه، وأن الإقلاع عنه يكلفه جهد الطاقة وغاية المشقة.

ومن الحق أن نذكر هنا أن الرجل يعشق الأنثى في مبدأ الأمر؛ لأنها امرأة بعينها؛ امرأة بصفاتها الشخصية وخلالها التي تتميز بها بين سائر النساء، ولكنه إذا أوغل في عشقها وانغمس فيه أحبَّها لأنها «المرأة» كلها أو المرأة التي تتمثل فيها الأنوثة بحذافيرها وتجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتها، فهي تثير فيه كل ما تثيره الأنوثة من شعور الحياة، وأي شعور هو بعيد من نفس الإنسان في هذه الحالة؟ إن الأنوثة لتثير فيه شعور القوة، وشعور الجمال، وشعور الألم، وشعور الجموح والانطلاق من قيود المنطق والحكمة، وشعور الإنسان كله، وشعور الحيوان كله، بل تثير فيه حتى الشعور بما وراء الطبيعة من أسرار مرهوبة ومن أغوار لا يسبر مداها في النور والظلام؛ لأن المرأة حين